

ذكر الله .. عبادة



«تقول لغة العرب: ذكر الإنسان النعمة أي استحضرها وقام بواجبها. وذكر المؤمن ربّه تعالى استحضره في قلبه مع تدبّر. والذكر استحضار الشيء في القلب، أو التكلّم عنه بالقول، فهناك ذكر بالقلب وذكر باللسان، وقد يكون الذكر عن نسيان، وقد يكون عن إدامة الحفظ. والذكر أيضاً هو القرآن، وقد يستعمل لفظ الذكر بمعنى الشرف كقوله تعالى: (وَإِذْ نَسَّه لَدَٰكِرُهُ لَٰكَ وَلَٰقَوْا مَلَكًا) (الزخرف/ 44).

والذكرى كثرة الذكر قال تعالى: (وَذَكَرَ رَبَّهُ فَلَإِنَّ الذِّكْرَى تَذْفَعُ الْهَمَّ وَمِنْ ذَيْنِ) (الذاريات/ 55).

و"ذكر الله" خلق من أخلاق القرآن وفضيلة من فضائل الإسلام ودعامة من هدي النبي (ص)، وقد توسّع الإمام ابن القيم في كتابه مدارج السالكين في الحديث عن الذكر ومكانته عند أطباء القلوب والأرواح، وأشاد بمنزلته فقال: "وهي منزلة القوم الكبرى، التي منها يتزودون. وفيها يتجرون. وإليها دائماً يترددون".

و"الذكر" منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل. وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم، التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قُطّاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق. ودواء أسقامهم الذي متى فارقه انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين عالم الغيوب.

وإذا مَرَضْنَا تداوينا بذكرِكم **** فنتركُ الذِّكرَ أحياناً فننتكسُ

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلمهم البلاء، فاليه ملجؤهم. وإذا نزلت بهم النوازل، فاليه مفزعهم. فهو رياض جذبتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كلّ جراحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و"الذكر" عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبّوبهم في كلّ حال؛ قياماً وقعوداً، وعلى جنوبهم. فكما أنّ الجنّة فيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلّما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً؛ ازداد المذكور محبّة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه؛ نسي في جنب ذكره كلّ شيء. وحفظ الله عليه كلّ شيء. وكان له عوضاً من كلّ شيء.

به يزول الوقر عن الإسماع، والبكم عن الألسن، وتنفث الطّلّمة عن الأبصار.

زيّن الله به ألسنة الذاكرين، كما زيّن بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل؛ كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء. وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

ومع توسّع الإمام ابن القيم في تصوير مكانة الذكر أضاف أنّ هناك مائة فائدة في الذكر ذكرها في كتاب "الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب".

والذكر من أخلاق الأنبياء، وهذا شرف له ففي سورة طه. جاء على لسان موسى (ع): (كَيِّ نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا) (طه / 33-34).

وفي سورة المائدة جاء قول الله تعالى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتَيَّ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ) (المائدة / 110).

وفي سورة آل عمران قال الله لزكريا: (وَإِذْ كُنَّا رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (آل عمران / 41).

وفي سورة طه قال الله مخاطباً موسى (ع): (إِنِّي نَزَّيْتُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِأَنَّكَ فَاعٍ بِدُورِي وَأَنتَ قَرِينٌ صَلَاةً لِّدُكْرِي) (طه / 14).

وفي السورة ذاتها قال مخاطباً موسى وهارون: (إِذْ هَبْ أَزْنَتَ وَأَخْبُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنفِيًا فِي دُكْرِي) (طه / 42).

والذكر الصادق له أثره العميق في نفس الذاكر ولذلك قال الله تعالى في سورة الأنفال: (إِنِّي نَزَّيْتُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِأَنَّكَ فَاعٍ بِدُورِي وَأَنتَ قَرِينٌ صَلَاةً لِّدُكْرِي) (الأنفال / 2).

وقال في سورة الحج: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَجِلَاتُ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الحج / 35).

وقال في سورة الرعد: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28).

وحول هذه الآية يقول القشيري: "قوم اطمأنت قلوبهم بذكرهم الله، وفي الذكر وجدوا سلوتهم، وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم. وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله فذكرهم الله - سبحانه - بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم، واستبشرت أرواحهم، واستأنست أسرارهم، قال تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28)، لما نالت بذكره من الحياة، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله، فذلك لخلل في قلبه، فليس قلبه بين القلوب الصحيحة.

ويُرشدنا القرآن الكريم إلى أن ذكر الله له مواطن وأماكن يحلو فيها، ويحسن. وإن كان ذكر الله يكون في كل مكان وأوان. فإلى تعالى يقول في سورة النور: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (النور/ 36)، ويقول في سورة الحج: (وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّ سَوَامِعُ الْبَيْعِ وَصَلَوَاتُ الْمَسَاجِدِ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) (الحج/ 40).

ويُرشدنا القرآن كذلك إلى أن قلة الذكر من شأن المنافقين، فيقول في سورة النساء: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء/ 142).

كما إن الصد عن ذكر الله من عمل الشيطان. فيقول القرآن في سورة المائدة: (إِنْ زَعَمَ الْفِتْيَانُ أَنْ يُثْقِلُوا فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا يَذْكُرُوا اللَّهَ وَلَا يَذْكُرُوا فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ) (المائدة/ 91).

وفي سورة يوسف: (فَأَنزَلْنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) (يوسف/ 42).

وفي سورة المجادلة: (اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنزَلْنَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ) (المجادلة/ 19).

وهدد الله الذين يغفلون عن ذكر الله فقال في سورة طه: (وَمَنْ أَغْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه/ 124).

وقال في سورة الكهف: (وَلَا تُطِيعُوا أَغْوَفَ الْأَنْصَارِ وَلَا يَذْكُرُوا اللَّهَ وَاتَّبَعُوا هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (الكهف/ 28).

وقال في سورة الجن: (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) (الجن/ 17).

وقد وردت في القرآن آيات تشير إلى مواطن ينبغي فيها ذكر الله تعالى أو يلزم، ففي سورة البقرة: (فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِّينَ) (البقرة/ 198).

أي فإذا اندفعتكم في الحج من فوق عرفات فاذكروا ربكم عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، ثم كرر

الأمر للتأكيد فقال واذكروه كما هداكم. وقيل إنَّ الأمر الثاني: أمر بالذكر على وجه الإخلاص، أو المراد به تعديد النعم وأمر بشكرها. والمعنى اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة واذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه. وفي السورة نفسها أيضاً جاء قوله تعالى: (وَاذْكُرُوا الْفَيْءَ الَّذِي آتَاكُمْ مَعْدُودَاتٍ) (البقرة / 203)، وهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر وهي أيام منى، ويراد بالذكر هنا التكبير وجاء في سورة الحج: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ) (الحج / 28).

والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة. وجاء في سورة البقرة: (فَالْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ فَضْلِيَ الْإِسْلَامَ) (البقرة / 200).

أي فإذا أديتم شعائر الحج فاذكروا الله واثنوا عليه بآلائه عندكم. اذكروا الله كثيراً كذكر الأطفال آباءهم وأُمَّهاتهم. واستغيثوا به والجأوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغرهم مع آبائكم. أو اذكروا الله وعظموه ودافعوا عن دينه كما تدافعون عن آبائكم أو أشد.

يقول القشيري في ذلك:

(فَإِذَا ذُكِّرُوا بِالْحَجِّ فَادْكُرُوا اللَّهَ وَاثْنُوا عَلَيْهِ بِآلَائِهِ عِنْدَكُمْ. اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا كَذِكْرِ الْأَطْفَالِ آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ. وَاسْتَغِيثُوا بِهِ وَالْجَاؤُوا إِلَيْهِ كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ فِي حَالِ صُغُرِكُمْ مَعَ آبَائِكُمْ. أَوْ اذْكُرُوا اللَّهَ وَعَظَمُوهُ وَدَافِعُوا عَنْ دِينِهِ كَمَا تَدَافِعُونَ عَنْ آبَائِكُمْ أَوْ أَشَدَّ).

ويقال إن كان لأبائكم عليكم حقٌّ التربية فحفّنا عليكم أوجب، وأفضلنا عليكم أتم.

ويقال إنَّ طعن في نسبك طاعن لم ترضَ، فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع فذبَّ عنا.

ويقال الأب يذكر بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القرية بحُسن التربية.

وقال: (كَذِكْرِكُمْ مَعِ آبَاءِكُمْ) ولم يقل أُمَّهَاتِكُمْ لأنَّ الأب يُذكر احتراماً والأُم تُذكر شفقة عليها والله يرحم ولا يُرحم.

(أَوَّهْ أَشَدَّ ذِكْرًا) لأنَّ الحقَّ أحق، ولأنَّك قد تستوحش كثيراً عن أبيك، والحقُّ سبحانه منزّه عن أن يخطر ببال من يعرفه أن بخلاف ما يقتضي الواجب حين أن كان ذرة.

وحينما تعرض صاحب "لطائف الإشارات" لقوله تعالى: (إِذْ نَزَّلْنَا الْمَائِدَةَ مِنْ سَمَاءِ الْفِرْدَوْسِ) (البقرة / 255) ذكر الله وجلَّته قُلُوبُهُمْ وَإِذْ تُلَاقِيَهُمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الأنفال / 2)، علّق عليها بهذه العبارة: "الوجل شدة الخوف، ومعناه هاهنا أن يخرجهم الوجل عن أوطان الغفلة، ويزعجهم عن مساكن الغيبة، فإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وفاءوا إلى مشاهد الذكر، نالوا السكون إلى الله عزّ وجلّ، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقاً على تصديق، وتحقيقاً على تحقيق، فإذا طالعوا جلال قدره، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكلوا عليه في إمدادهم بالرعاية في نهايتهم، كما استخلصهم بالعناية في بدايتهم".

ويقال: سُنّة الحقِّ سبحانه مع أهل العرفان أن يرددهم بين كشف جلال ولفظ جمال، فإذا كاشفهم بجلاله وجلت قلوبهم، وإذا لطفهم بجماله سكنت قلوبهم، قال الله تعالى: (وَتَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (البقرة / 28).

ويقال: "وجلّت قلوبهم بخوف فراقه، ثمّ تطمئن وتسكن أسرارهم بروح وصاله، وذكر الفراق يغنيهم، وذكر الوصال يصحّهم ويحييهم".

وفي سورة الأعلى يقول الحقّ تبارك وتعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الأعلى/ 14-15).

ويقول محمد عبده إنّ قوله: (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) معناه: لاحظ بسرّه ما يجب أن يعرفه عن ربّه، فيحضر في قلبه صفاته العلية فيخشع لذلك، فالصلاة هنا بمعنى الخشوع واللجوء إلى الله، فهو كقوله سبحانه: (إِنَّ زَمَّامَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا ذُكِّرَ بِهِ وَجِلَتْ الْفُؤَادُ) (الأنفال/ 2).

وقد يكون مع الخشوع صلاة من الصلوات المكتوبة أو جميعها، وإنّما عبّر عن الخشوع بالصلاة، لأنّه لبّها والمقصود منها، والصلاة دون خشوع شبح بلا روح.

ويطالب القرآن بذكر الله عند الأمن بعد الخوف، فيقول في سورة البقرة: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 239)، أي إذا زال عنكم الخوف، وتحقق لكم الأمان بفضل الله فاشكروه على هذه النعمة.

والله جلّ جلاله يطالب بالذكر في كلّ الأوضاع والأحوال. أليس هو القائل في سورة آل عمران: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُبْدِيهِ زَكَاةً فَهَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (آل عمران/ 190-191).

ويقول الله تعالى في سورة العنكبوت: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَذَكُّرٌ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) (العنكبوت/ 45).

وورد في معنى هذا أقوال أربعة:

الأوّل: أنّ ذكر الله أكبر من كلّ شيء، فهو أفضل الطاعات.

الثاني: إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له.

الثالث: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة أو منكر، فإذا تمّ الذكر محق كلّ الخطايا.

الرابع: ما تضمنته الصلاة من ذكر الله أكبر وأعظم من نهيه عن الفحشاء والمنكر.

وقد جاء "الذكر" في القرآن المجيد على عشرة أوجه:

الأوّل: الأمر به مطلقاً ومقيّداً.

الثاني: النهي عن ضده، وهو الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والأخبار بما أعده الله لهم من الجزّة والمغفرة.

الخامس: الأخبار عن خسران مَن لها عنه غيره.

السادس: أنَّ إا سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الأخبار بأنَّه أكبر من كلِّ شيء.

الثامن: أنَّ إا تعالى جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الأخبار عن أهله بأنَّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنَّهم أولوا الألباب دون غيرهم.

العاشر: جعله إا قرين جميع الأعمال الصالحة، وهي بدونه كالجسد بلا روح.

وقد ذكر القرآن الحكيم ختم الصيام بالذكر فقال: (وَلَيْتُكُمْلَأُوا الْعِدَّةَ وَلَيْتُكَبِّرُورُوا اللَّهَ عَالَى مَا هَدَاكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة/ 185).

وختم به الصلاة فقال: (فَلِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فَيَسَامًا وَفُعُودًا وَعَالَى جُنُوبِكُمْ) (النساء/ 103).

وختم به الجمعة فقال: (فَلِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة/ 10).

ويقول الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أنَّ الباب مغلق.

ولقد سأل السلمي الشيخ الدقاق: الذكر أتم أم الفكر؟

فقال الدقاق: ما الذي يقع لك فيه؟

فأجاب السلمي: عندي الذكر أتم من الفكر، لأنَّ الحقَّ سبحانه يُوصف بالذكر، ولا يُوصف بالفكر، وما وُصف به الحقَّ سبحانه أتم مما اختص به الخلق.

فاستحسن الدقاق جواب السلمي.

وحسب الذكر شرفاً - كما نفهم من السُّنة المطهرة - أن يخبرنا الرسول بأنَّ السابقين هم الذاكرون، وأنَّ خير الأعمال وأزكاها عند إا الذكر، وأنَّ إا تعالى يباهي ملائكته بالذاكرين، وأنَّ مجالس الذكر هي رياض الجنَّة، وأنَّ مثل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكره مثل الحيِّ والميت، وأنَّ التمتع الحقيقي إنَّما يكون بذكر إا جلَّ جلاله.

اللَّهمَّ اجعلنا من الذاكرين لك، والشاكرين لأنعمك، الفائزين برضوانك. ►

